رسالة في الزهد والوعظ :

أورد ابن بسام رسالة لأحد الزّهّاد من أهل سرقسطة يحث فيها على الزهد والتزام سبيل الهداية والرشاد ، يقول :

" أنار الله وجوههم بنور إخلاص سرائرهم ، وكللهم بالمهابة في العيون ، وطهّر قلوبهم من اختلاج سوء الظنون ، فنفوسهم مستريحةٌ رائحة ، ومحاسنهم لأهل العقول لائحة ، وثناؤهم عطر الانتسام ، فهم بين الأنام كالأعلام ، بهم يُستمطر الغمام إذا حُجِب ، وفي جملتهم يُحشر السعيد إذا نُجب .." .

مقدمة :

فن الرسائل فن من الفنون الأدبية النثرية التي سادت في العصر الأندلسي سيادتها في العصور العربية الأخرى، وكان لها عند الأندلسيين قسمان : قسم غايته محاكاة الأشياء أو التأمل في بعض المشكلات ومناقشتها من دون الالتفات إلى الأسلوب البياني والبلاغي، وقسم آخر بياني النزعة غايته إظهار البراعة الأسلوبية والبلاغية وهناك رسائل تجمع بين هذين القسمين. والرسالة التي بين أيدينا بيانية النزعة؛ غايتها إظهار البراعة الأسلوبية والبلاغية ، وهي من الرسائل الدينية جاءت على لسان أحد الزّهّاد من أهل سرقسطة يحث فيها على الزهد والتزام سبيل الهداية والرشاد .

معاني النص :

حاول الكاتب رسم صورة معبرة لسلوك الزّهّاد والمتعبدين ، وبيّن فضلهم عند الله وتعظيمَه لهم من خلال وصف أحد الزّهاد المتعبدين لهم ، ليضيف نوعاً من المصداقية على الأوصاف التي سنراها لهم في هذه الرسالة ، فنقاء قلوبهم انعكس نوراً على وجوههم ، ويلمح فيهم من ينظر إليهم الهيبة والقدر العالي عند ربّهم ، فهم أصحاب قلوب طيبّة تحسن الظنّ فيمن حولها وتخلو من أيّ قلق أو خوف لأنها على ثقة بربّها ، وما يبدو منهم من قولٍ أو فعل يلقى استحسان أصحاب العقول الراجحة ، نتنسم منهم عطر الامتنان والمودة ، فهم في غاية الرضا ، لذلك كان لهم قدرٌ كبير بين الناس يوازي قدر الجبال الشامخة بين التلال ، منهم نستمدّ البركة وندعو الله أن يسقينا الغيث إذا حُجب عنّا ، والمحظوظ من يكون معهم يوم الحشر لأن الله سيكرمه إكراماً لهم .

- **رموز النص التي استخدمها الكاتب ودلالاتها:**

نلمح في الرسالة مجموعة من الدلالات ، مثل التقوى (أنار الله وجوههم بنور إخلاص سرائرهم) والهيبة (كللهم بالمهابة في العيون) ونقاء القلب (طهّر قلوبهم من اختلاج سوء الظنون) والطمأنينة (نفوسهم مستريحةٌ رائحة) والمكانة العالية عند الناس (ومحاسنهم لأهل العقول لائحة ، وثناؤهم عطر الانتسام) في الدنيا وعند الله يوم الحشر(بهم يُستمطر الغمام إذا حُجِب ، وفي جملتهم يُحشر السعيد إذا نُجب).

وكل الدلالات السابقة ترسم لنا صورة واضحة للزاهدين وما يتصفون به .

- **المؤثرات المشرقية :**

التفصيل والعطف كان واضحاً في نص الرسالة ممّا يدلّ على تأثر الكاتب بالأسلوب الجاحظي المشرقي ، وقد رأينا هذا التأثير من بداية الرسالة إلى نهايته ، مثل قوله (أنار الله وجوههم بنور إخلاص سرائرهم ، وكللهم بالمهابة في العيون ، وطهّر قلوبهم من اختلاج سوء الظنون ..)

- **الأساليب البلاغية واللغوية والتصويرية والفنية :**

١- <u>السجع</u> :

جاء السجع في هذه الرسالة عفوياً بعيداً عن التكلّف في جمل موجزة مثل(العيون الظنون ، رائحة ، لائحة ، الانتسام ، كالأعلام ، حُجِب ، نُجب ..)

٢- <u>البديع</u> :

ساهم الجناس في الرسالة في إغناء الموسيقا الداخلية للنص ، مثل (العيون الظنون ، رائحة ، لائحة ، حُجِب ، نُجب ..).

٣- <u>الألفاظ والتراكيب</u> :

مالت ألفاظ الرسالة إلى السهولة والبساطة والوضوح والإيحاء بما يبتغيه الكاتب في رسالته في ذكر صفات الزّهّاد من تقوى وورع ومكانة عن الله، وهذا ما نجده في ألفاظ النص عموماً .

والسمة العامة لألفاظ الرسالة أنّها كانت ذات صبغة إسلامية مناسبة للمعاني والصفات التي أوردها الكاتب في رسالته .

أمّا التراكيب فقد كانت مترابطة منسجمة مع بعضها ومناسبة لأداء المعاني التي أراد الكاتب إيصالها مثل : (أنار الله وجوههم ، كللهم بالمهابة ، طهّر قلوبهم ..)

٤- <u>الجمل الفعلية والاسمية</u> :

بدأ الكاتب بسرد صفات الزهّاد معتمداً في ذلك على الأفعال الماضية مثل (أنار، كلّل ، طهّر) للدلالة على تحقق وثبات التقوى والورع في نفوس هؤلاء المتعبِّدين .

ثم استخدم الجمل الاسمية لتأكيد رسوخ وثبات معاني الطمأنينة والتعقّل ومحبّة الناس لهم ومكانتهم المرموقة بين الناس ، في قوله (فنفوسهم مستريحةٌ رائحة ، ومحاسنهم لأهل العقول لائحة ، وثناؤهم عطر الانتسام ، فهم بين الأنام كالأعلام) ، وختم النص باستخدامه الأفعال المضارعة مثل (يُستمطر ، يُحشر)، للدلالة على تجدّد واستمرار المكانة العالية لهؤلاء الزّهّاد عند ربّهم .

٥- <u>الصور</u> :

لعل الكنايات في آخر الرسالة كانت تأكيداً للأوصاف التي تحلّى بها هؤلاء الزّهّاد ففي قوله (بهم يستمطر المطر) ، (في جملتهم يُحشَر السعيد إذا نُجِب) كنايتان عن صفة واحدة وهي المكانة العالية عند الله .

كما ظهر التجسيد في هذه الرسالة، مثل قوله (نور إخلاص سرائرهم) ، وقوله (كللهم بالمهابة) .

أما التشبيه فظهر في موضعين : الأول في قوله (ثناؤهم عطر الانتسام) في دلالة على عظيم الأثر الذي يتركه رضاهم ، و الثاني في قوله (هم بين الأنام كالأعلام) في دلالة على شهرتهم ومكانتهم الكبيرة بين الناس .

٦- **<u>المعجم الدلالي</u>** :

يمكننا أن نلمح في النص أن معجم " الزهد والزاهدين " بدا وضحاً في هذه الرسالة في قوله (أنار ، وجوههم ، إخلاص ، سرائر ، طهّر ، قلوبهم ، نفوسهم ، مستريحة ، رائحة ، أعلام ، يُستمطر ، يُحشر ..) وقد ساهم هذا المعجم في رسم صورة واضحة لهؤلاء الزهّاد وما يتحلّون به من صفات ومكانة عالية عند الله والبشر .

- **خاتمة :**

- إن النثر في العصر الأندلسي لبس أثواباً عديدة وكان في بعضه يحاكي التراث المشرقي أي يحاكي طرائق ابن المقفع وسهل بن هارون والجاحظ أو كتاب القرن الرابع مع ذلك كان لكل كاتب من هؤلاء خصوصيته في أخذ لون من هذه الألوان والنسج على منوالها، وإخراجها بنكهة أدبية خاصة تحدد ميوله وأساليبه.

رسائل السخرية التهكمية :

كتب ابن زيدون على لسان ولّادة بنت المستكفي إلى ابن عبدوس منافسِه في حبها ، ليسخر منه ويتهكّم عليه ، لأنه أوفد امرأة تستميلها إليه ، وترغّبها في الاستجابة لرغبته ، وهي تنبع من حقد شديد وغضب عنيف ، يقول :

" أما بعد ، أيها المصاب بعقله ، المُوَرَّطُ بجهله ، البيَّن سقطه، الفاحشُ غلطه ، العاثر في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره .. فإنّ العجب أكذب ، ومعرفة المرءِ نفسَه أصوب .. " .

(السَّقط : ما لا يرضي) .

مقدمة :

فن الرسائل فن من الفنون الأدبية النثرية التي سادت في العصر الأندلسي سيادتها في العصور العربية الأخرى، وكان لها عند الأندلسيين قسمان : قسم غايته محاكاة الأشياء أو التأمل في بعض المشكلات ومناقشتها من دون الالتفات إلى الأسلوب البياني والبلاغي، وقسم آخر بياني النزعة غايته إظهار البراعة الأسلوبية والبلاغية وهناك رسائل تجمع بين هذين القسمين. والرسالة التي بين أيدينا بيانية النزعة؛ غايتها إظهار البراعة الأسلوبية والبلاغية ، وهي من رسائل السخرية والتهكم ، كتبها ابن زيدون على لسان ولادة يعبّر فيها عن حقده وكراهيته لابن عبدوس لأنّه حاول التقرّب من محبوبته ولادة .

- **معاني النص :**

ألبس ابن زيدون سخريته وتهكّمه أثواب الفكاهة ، ولم يُرد من هذه الفكاهة بث أجواء مريحة في نفس ابن عبدوس ، بل كان يهدف إلى إذلاله والحطّ من قدره . وعندما جعل المرسِل في الرسالة المرأة التي تنافس في حبّها الرجلان ، وهي الأميرة ولّادة ، تعمّد قلبَ الحقائق والصفات على طريقة أصحاب النقائض في أشعارهم ، فوصفه بالجنون (أيّها المصاب بعقلك) ، والجهل وضعف الرأي (المورّط بجهله ، البيَّن سقطه) ، وكثرة الأخطاء (الفاحشُ غلطه) ، والغرور البادي عليه (العاثر في ذيل اغتراره) ، والحمق والغرور اللذين كانا سببين في حجب حقيقته عن نفسه (الأعمى عن شمس نهاره ، فإن العجب أكذب) ، وتلك الأوصاف كانت سدّاً يمنع ابن عبدوس من رؤية عيوب نفسه التي يتوجب على كل إنسان طبيعي أن يراها (معرفة المرء نفسَه أصوب) .

- **رموز النص التي استخدمها الكاتب ودلالاتها:**

تضمّنت الرسالة دلالتين واضحتين هما الجنون والغرور اللذين كانا سبباً رئيساً في قبح شخصيته ووقوعه المتكررّ في الغلط ، وكلتا الدلالتين ألبسهما الكاتب عباءة السخرية والتهكّم ليزيد من تأثير الصورة القبيحة التي رسمها على لسان ولاّدة .

- **المؤثرات المشرقية :**

من أبرز المؤثرات المشرقية في النص أسلوبا التفصيل والعطف ، وكان الكاتب موفّقاً في ذلك ، فقد ساهم التفصيل والعطف في إيصال الرسالة التي أراد ابن زيدون على لسان ولادة ، ليس لابن عبدوس فحسب ، بل إلى كل المجتمع الأندلسي بهدف السخرية والتهكّم .

- **الأساليب البلاغية واللغوية والتصويرية والفنية :**

١- <u>السجع</u> :

لم يكن السجع عفوياً في هذه الرسالة كما هي الحال في الرسائل السابقة ، وكان الغرض منه إظهار براعة الكاتب الأسلوبية في انتقاء الفواصل ، وزاد السجع من جمالية الموسيقا الداخلية للرسالة . مثل (بعقله ، بجهله ، سقطه ، غلطه ، اغتراره ، نهاره ، أكذب ، أصوب)

٢- <u>البديع</u> :

اعتمد الكاتب في نصه على المحسنات المعنوية مثل الطباق في قوله :

(عقله/جهله) وقوله (غلطه / أصوب) وقوله (الأعمى / البيِّن) في محاولة لإبراز التناقض الحادّ بين التعقل الذي يتحلّى به خصمه ابن زيدون والجهل الذي يتمتّع به ابن عبدوس ، وبين الأغلاط الفاحشة التي يقع بها ابن عبدوس والصواب الذي يتصف به ابن زيدون في أقواله وأفعاله .

٣- **الألفاظ والتراكيب** :

كانت الألفاظ في هذا الجزء اليسير من رسالة ابن زيدون تميل إلى السهولة والوضوح والإيحاء بمراد الكاتب في التهكم من ابن عبدوس والحطّ من شأنه ، كما في قوله : (المصاب ، عقل ، جهل ، مورّط ، بيّن ، غلط ..) ، وكذلك **تراكيب النص** كانت مترابطة ومنسجمة مع بعضها ومناسبة لأداء معاني السخرية والتهكّم التي أراد الكاتب إيصالها.

٤- **الجمل الفعلية والاسمية** :

لم نرَ في النص ظهوراً بيّناً للأفعال ، بل كان فعل النداء مقدراً تخلل عدة جمل في بداية الرسالة وهي (أيها المصاب بعقله ، المُوَرَّطُ بجهله ، البيَّن سقطه، الفاحشُ غلطه ، العاثر في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره) ولعل انفعال الشاعر وغضبه من ابن عبدوس دفعه إلى هذا الأسلوب الإنشائي الذي يقتضي معه حذف فعل النداء.

أما الجمل الاسمية فقد ظهرت في نهاية هذا الجزء من رسالته في قوله (فإنّ العجب أكذب ، ومعرفة المرء نفسَه أصوب) للدلالة على ثبوت معاني الغرور والجهل في شخصية ابن عبدوس .

٥- **المعجم الدلالي** :

مفردات المعجم الدلالي للمفردات كانت في معظمها تدور حول الجهل والغرور في شخصية ابن عبدوس ، مثل (عقل، جهل، سقط ، غلط ، العاثر، اغترار ، الأعمى، العجب ، أكذب). وقد أسهم المعجم بألفاظه في رسم صورة واضحة لفساد شخصية ابن عبدوس واضطرابها لما تتحلى به من صفات الجهل والغرور .

- **خاتمة :**

- إن النثر في العصر الأندلسي لبس أثواباً عديدة وكان في بعضه يحاكي التراث المشرقي أي يحاكي طرائق ابن المقفع وسهل بن هارون والجاحظ أو كتاب القرن الرابع مع ذلك كان لكل كاتب من هؤلاء خصوصيته في أخذ لون من هذه الألوان والنسج على منوالها، وإخراجها بنكهة أدبية خاصة تحدد ميوله وأساليبه.